الثاني ب

من قصيدة البردة لكعب بن زهير في مدح الرسول (ص)

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ
متيّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولُ

وما سعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا
إلا أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ

هيفاءُ مقبلةٌ عجزاءُ مدبرةٌ
لا يشتكي قِصَرٌ منها ولا طولُ

تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمت
كأنها منهلٌ بالراحِ معلولُ

أمستْ سعادُ بأرضٍ لا يبلغها
إلا العِتاقُ النجيباتُ المراسيلُ

تُخدي على يسراتٍ وهي لاهقةٌ
ذوابلٌ مسّهن الأرضَ تحليلُ

شُمرُ العجايات يترُكن الحصى زيماً
لم يُهنهن رؤوسَ الأكمِ تنعيلُ

نبئتُ أن رسولَ اللهِ أوعدني
والعفوُ عند رسولِ اللهِ مأمولُ

مهلاً هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الـ
ـقرآنِ فيها مواعظٌ وتفصيلُ

لا تأخذني بأقوالِ الوشاةِ ولم
أذنبْ ولو كثرت فيّ الأقاويلُ

لقد أقومُ مقاماً لو يقومُ به
أرى وأسمعُ ما لو يسمعُ الفيلُ

لظلّ يرعدُ إلا أن يكونَ له
في كفِّ ذي نقماتٍ قيلُه القيلُ

إنّ الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به
مهنّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

قصيدة كعب بن زهير المشهورة بالبردة في مدح رسول الله (ص) لها مكانة كبيرة لدى الدارسين المصلحين قديماً وحديثاً، لأنها قيلت حين جاء كعب بن زهير تائباً نازعاً عما كان عليه من هجاء المسلمين وهجاء النبي (ص).

تشتمل القصيدة على ثلاثة موضوعات، أولها الغزل، والثاني وصف الناقة، والثالث الاعتذار للنبي (ص) ومدحه، يستهل الشاعر قصيدته بذكر حبيبته سعاد التي رحلت وخلفته أسير هواها، ولا بد وسيلة لفكاك أسره من هذا الأسر وما يعانيه من شوق ووجد وعذاب؛ ويصور حبيبته بصورة رائعة فهي كالظبي الأغن ويتأمل في جسمها الجميل المشوق، ويصف ثغرها وأسنانها البيض العذبة البريق ويتذكر أيامها وما قاساه من صدودها وقسوتها، وإخلافها المواعيد وتقلبها في حبها الذي يبلغ مبلغ الغدر.

وفي القسم الثاني من القصيدة ينتقل الى وصف الناقة التي هي وسيلته للوصول الى غرضه وقد وصف ناقته وصفاً دقيقاً وتوسع في ذكر أعضائها وتصوير قوتها وسنامها مصبة أصالتها ونسبها، فوصف عنقها وخديها وقوائمها، وسرعتها ونشاطها وقوة احتمالها وشبهها بحمار الوحش، وسرعة أيدي الناقة وتقلبها في الأرض

ويصل الى القسم الثالث من القصيدة وهو القسم الذي تحدد له بكل ما تقدم، وهيأ نفسه واحاسيسه وقدم اعذاره لأنه سيقف بين يدي الرسول (ص) فهو يعتبر

عن خوفه ورهبته حيث ضاقت به الأرض وتخلى عنه الأهل والصديق، وكثرة الوشاة الذين يخوفونه مما سيلقى من مصير - متقدر أن يضع يده في يدي رسول الله (ص) سيبدأ معتنقاً طامعاً بعفو الرسول (ص) عنه ورضاه، وصار يمدح الرسول ويصفه بصفات النبوة ويذكر قوته ومهابته، واستطرد في تصوير الخوف والمهابة فذكر الفيل وضخامته وقوته، والأسد إضاريه في واديه والذي يهابه الإنسان والحيوان ثم تناول الجزء الثاني الذي أبدع فيه كعب رغم هداية عهده بالإسلام ثم تناول الجزء الإسلامي الذي أبدع فيه كعب فمدح النبي ومدح من حوله من المهاجرين والأنصار وأشاد ببطولاتهم وصبرهم في الحرب.

أشار رسول الله (ص) الى من حوله من المسلمين أن استمعوا ما وكان إنشاد هذه القصيدة في المسجد النبوي، ثم كساه النبي (ص) بردته دلالة الحماية والتكريم وصار للبردة تاريخ في الحضارة الإسلامية، والبردة كساء مخطط. ما زال يليسه قراء القرآن يضعونه على أكتافهم أو يأتزرون به.

وقد عارض هذه القصيدة كثير من الشعراء. من أقدم المعارضات معارضة أبي المظفر الابيوردي في القرن الخامس الهجري التي أولها:

خاض الدجى ورواق الليل مسدول برق كما إهتز ماضي الحد مصقول

ومن أجود المعارضات المشهورة قصيدة البوصيري في القرن السابع الهجري واسمها (ذكر المعارض في معارضة بانت سعاد) وقد بدأها بقوله:

الى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قد قدمت مسؤول

في كل يوم تريحي أن تتوب غداً وعقد عزمك بالتسويف محلول

وفي القرن الثامن الهجري عارضها ابن نباتة المصري في قصيدته التي مطلعها:

ما الطرف عندكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل

وعارضها الفقشندي في القرن التاسع الهجري بقصيدته التي أولها:

سيف لعيون على العشاق مسلول وصارم اللحظ مسنون ومصقول

وعارضها الزمخشري، والفيروز آبادي، وابو حيان التوحيدي وغيرهم.

وهكذا كان لهذه القصيدة مكانة رفيعة في نفوس الأدباء والشعراء وما زالت الدراسات تخوض فيها وتحوم حولها وتتجادل فيها وتتدارسها العلماء والمتعلمون لما فيها من فن وما فيها من بركة وخير لأنها أشهر قصيدة في مدح رسول الله (ص).